بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكوير من الآية (١) إلى الآية (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين يا رب العالمين.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [سورة التكوير:١]، و{إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} [سورة الانفطار:١]، و{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} [سورة الانشقاق:١]))[1]، وهكذا رواه الترمذي.

سورة التكوير {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} تتحدث عن يوم القيامة، وأهواله وأوجاله، وفي شقها الآخر أقسم الله -تبارك وتعالى- فيها على أن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحي من الله، وأنه حق ثابت، وأنه ليس كما يقولون من أنه مجنون -عليه الصلاة والسلام-، وما إلى ذلك من الأقاويل الباطلة التي ينسبونها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو لهذا الوحي، وهذا -والله أعلم- لا يخرج عن موضوع السورة الذي ذكره الله -عز وجل- في صدرها من الحديث عن اليوم الآخر، فلما ذكر لهم طرفاً من مشاهد اليوم الآخر أخبر أن هذا أمر حق وأنه ليس بالتخرصات والأباطيل، إنما هو قول رسول كريم جاء به من عند الله -تبارك وتعالى-، وليس ذلك من قبيل الاختلاق والافتراء والكذب على الله -عز وجل-، ولهذا قال بعده: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [سورة التكوير:٢٨].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير:١-١٤].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} يعني: أظلمت، وقال العوفي عنه: ذهبت، وقال قتادة: ذهب ضوءها، وقال سعيد بن جبير: {كُوِّرَتْ} غُوِّرت.

وقال أبو صالح: {كُوِّرَتْ} ألقيت.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة "إذا الشمس كورت"، برقم (٣٣٣٣)، وأحمد في المسند، برقم (٤٨٠٦)، وقال محققوه: "إسناده حسن"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٢٩٣).

والتكوير جَمعُ الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: {كُوِّرَتْ} جُمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها.

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الشمس والقمر يكوران يوم القيامة))[٢]، انفرد به البخاري وهذا لفظه.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} هذه العبارات عن السلف: أظلمت، ذهبت، ذهب ضوءها، غُورت، كل ذلك يرجع إلى معنى واحد، وهو أثر ونتيجة للمعنى الآخر الذي ذكروه، قال: **والتكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض**، هذا أصله، **ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض**، فيكون المعنى: **جُمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها**، يعني أن التكوير: أن يُجمع بعضها إلى بعض، فبهذا تكون غوّرت، صارت مظلمة، ذهب ضوءها، انطفأ نورها، كل هذه المعاني نتيجة لكونها لفت وجمع بعضها إلى بعض.

وهنا جاء عن أبي صالح قال: ألقيت، {كُوِّرَتْ} يعني: ألقيت، وجاء عن الربيع: رُمي بها، قال: كورتُه فتكور يعني: سقط، كل هذه المعاني تحصل للشمس، تُكور، يضم بعضها إلى بعض، فينطفئ نورها، ويلقى بها في النار كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، هناك من الناس من عبد الشمس، والله -عز وجل- قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [سورة الأنبياء:٩٨]، فتلقى هذه الشمس في النار، وفي الحديث: ((الشمس والقمر يكوران يوم القيامة))، وما ذكره هنا قال: **جُمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل..** هنا جمع بين المعاني والأقوال التي ذكرها السلف، وهذا عزاه الواحدي للمفسرين واختاره ابن جرير، وذكر ابن جرير أن المعاني الأخرى لا تنافيه، فكأنها نتيجة وأثر لهذا التكوير.

قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض.

وهو نفس المعنى الذي ذكره ابن كثير.

وقوله تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي: انتثرت، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} [سورة الانفطار:٢]، وأصل الانكدار: الانصباب.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة.

قوله: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} قال: **انتثرت**، وفسرها بالآية الأخرى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}، أصل الانكدار قال: **الانصباب**، أصله الانصباب، يقال: انكدر الطائر في الهواء يعني: انصب وانقض وانحدر، وكما يقول الخليل بن أحمد: انكدر القوم، يعني انكدر عليهم القوم، يعني: جاءوا أرسالاً فانصبوا عليهم، ويقول عطاء: تمطر السماء يومئذٍ نجوماً، فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض، وبعضهم يقول: انطمس نورها، فهذا كأنه أثر لهذا الانكدار؛ لأنه تغيُّر، فابن جرير -رحمه الله- ذكر المعنيين: تناثرت فتساقطت، باعتبار أن أصل الانكدار الانصباب، والله تعالى يقول: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} فيقول: تناثرت فتساقطت، وهذه الآيات

---

٢ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، برقم (٣٢٠٠).

أبيّ بن كعب -رضي الله عنه- يقول: منها ما يكون قبل يوم القيامة، ست، ومنها ما يكون بعد قيام الساعة، هذه الأشياء المذكورة.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبيّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: اختلطت، {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} قال: أهملها أهلها، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[٣]، رواه ابن جرير وهذا لفظه.

فهذه الست التي تكون قبل النفخ في الصور، تكوير الشمس، انكدار النجوم، تسيير الجبال، تعطل العشار، الوحوش تحشر، والبحار تسجر، إلى هنا، فإذا قامت القيامة زُوجت النفوس، أُلحق كل إنسان بمن يشاكله، مَن كان على دينه وملته وعمله وحاله، وتُسأل الموءودة، وتتطاير الصحف، وتكشط السماء، وتسعر الجحيم، وتقرب الجنة، وعندئذٍ يعلم الإنسان -كل إنسان- ما قدم وما عمل في دنياه، هذا قول أُبيّ -رضي الله تعالى عنه-، يعني هذه الأشياء تكون بعد النفخة الأولى، أو تكون قبلها، بينما الناس في أسواقهم، يعني قبل النفخة الأولى، قال: قبل يوم القيامة، ويوم القيامة يكون حينما ينفخ في الصور، طبعاً هنا على تفسير بعض المواضع مثل قوله: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [سورة التكوير:٥] قال: اختلطت، يعني هنا على أساس أنه يفسر أن الوحوش تختلط بحيث ما يفر بعضها من بعض، ولا يخاف بعضها من بعض، وكما يقول بعضهم أيضاً: تأتي عند الإنس لا تخافهم ولا يخافونها، هذا قبل يوم القيامة، ولكن على المعنى الآخر أنها تحشر يوم القيامة، فيقتص بعضها من بعض، ثم يقال لها: كوني تراباً، فهذا على أحد المعنيين، ويأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} أي: زالت عن أماكنها ونُسفت، فتركت الأرض قاعاً صفصفاً.

وقوله: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} قال عكرمة، ومجاهد: عشار الإبل، قال مجاهد: {عُطِّلَت} تُركت وسُيِّبت.

وقال أبي بن كعب، والضحاك: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خُثَيم: لم تحلب ولم تُصَرّ، تخلى منها أربابها.

وقال الضحاك: تركت لا راعي لها.

والمعنى في هذا كله متقارب، والمقصود: أن العشار من الإبل -وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدتها عُشَراء ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع- قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعدما كانوا أرغب شيء فيها، بما دَهَمهم من الأمر العظيم المُفظع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها.

يعني العشار جمع، والواحدة منه يقال لها: عُشراء، فهذه التي قد استتم لها عشرة أشهر في حملها، يعني هي قريبة الولادة، وهذه أنفس الأموال عند العرب، وأصحابها يُعنون بها غاية العناية، بل إن بعضهم يقدمها

---

٣ - رواه ابن جرير في تفسيره، في تفسير سورة التكوير، (٢٣٧/٢٤).

ويفضلها على ولده، ويقدم إطعامها والنفقة عليها على طعام أولاده، ويسميها، ويحصل له من المؤانسة لها والمخالطة أعظم مما يحصل مع أولاده، حتى تألفه، ولربما دعاها فأجابته؛ لكثرة مخالطته لها تعرفه من بين الناس، وأهل الإبل يعرفون هذا جيداً، ولها عندهم من المنزلة والمكانة ما لا يُقادَر قدره، حتى إن بعضهم يأبى كل الإباء أن يبيع شيئاً منها، وبعضهم يأبى كل الإباء أن ترحل في سيارة أو نحو ذلك، فيمشي على قدميه معها مئات الكيلومترات؛ لأنه يرى أن حملها ورفعها ووضعها في نقالة أن هذا نقيصة في حقها وإزراء بها، هذا كله واقع وموجود، تجد الرجل الكبير يمشي معها مئات الكيلومترات حتى ينقلها إلى المكان الآخر، فلربما ركبته الديون وكثرت المطالبات وعنده هذه الإبل التي يمكن أن تباع بالملايين ويأبى أن يبيع واحدة منها، لا يمكن أن يفرط بها، يرى أن نفسه أرخص منها بكثير، هذا واقع، ومن سأل أصحاب الإبل يخبرونه من هذا بعجائب، فهذه كلها تترك ولا يلتفت الناس إليها، فكيف بالأشياء الأخرى من المزارع والسيارات، أو الناطحات، أو غير ذلك؟!، الناس يشتغلون، والله خاطب العرب بما يعهدون، بما هو في بيئتهم، الإبل عندهم هي أنفس الأموال، فيمكن أن تقول: يتركون نفائس ما يملكون وينشغلون بما رأوا من الأهوال والأوجال، فيشغلهم ذلك عما سواه، إذا كان الإنسان يترك أعظم الأشياء وأنفس الأشياء عنده فما دونه من باب أولى، فينبغي أن يشتغل لذلك اليوم لا أن يشتغل عنه، وأن يستعد المرء حتى يكون آمناً يوم القيامة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} أي: جمعت، كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام:٣٨]، قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب، رواه ابن أبي حاتم.

قال الله تعالى: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} [سورة ص:١٩]، أي: مجموعة.

هنا {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً} جاء به من أجل بيان معنى الجمع، {مَحْشُورَةً} يعني: مجموعة، لكن ليس المراد يوم القيامة هنا في الآية، وإنما ذلك لما أعطى الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص:١٩]، فهذه من الأشياء التي خصه الله -عز وجل- بها، أعني سليمان -عليه الصلاة والسلام.

لكن الآية الأخرى التي ذكرها في سورة الأنعام {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [سورة الأنعام:٣٨] إلى أن قال: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، هذا الحشر يوم القيامة، فهذا دليل من القرآن على حشر هذه الدواب والبهائم، وهنا {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} هل المقصود به حشر يوم القيامة أو أن ذلك في الدنيا؟ الرواية السابقة عن أبي بن كعب أن ذلك في الدنيا، أنها تختلط مع الناس، تختلط مع بعضها، لا يفر بعضها من بعض، والوحش يقال لكل ما لم يأنس من الحيوان، سواء كان ذلك من الصيود أو كان من غيرها، يعني السباع، كله يقال له: وحش، يعني: آكلة اللحوم، وكذلك أيضاً التي تأكل النباتات: الظباء وغيرها، كل ذلك يقال له: وحش، الحُمر الوحشية، السباع؛ لأنها لا تأنس، فهي تفر من الناس ومن مجامعهم، فعند ذلك على قول أُبيّ: تختلط، والمعنى الآخر أنها تحشر يوم القيامة، تبعث حتى يقتص بعضها من بعض، وبعضهم يقول: حشْرُها موتُها، وجاء هذا عن ابن عباس -رضي الله عنه-، وبعضهم يقول: تضم في ذلك اليوم إلى الناس، تختلط بالناس، تكون يعني أليفة، لا تستوحش من مخالطتهم.

والربيع يقول: أتى عليها أمر الله، ما هو أمر الله؟ ابن عباس يقول: ماتت، لكن كلمة الربيع مبهمة -أتى عليها أمر الله-، يحتمل أن يكون الموت، ويحتمل أن يكون أنها تختلط مع الناس ويذهب ما بها من الاستيحاش أو غير ذلك.

ابن جرير جمع بين معنيين، الجمع والإماتة، قال: جُمعت فأميتت، وهذا يمكن أن يحمل على أنها تجمع -تحشر- يوم القيامة، فيقتص بعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً، هذا الذي دل عليه الحديث، {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}، فتبقى هذه الآية محتملة أن يكون هذا الحشر في الدنيا، ولها حشر في الآخرة، ثم يقال لها: كوني تراباً، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الحشر يوم القيامة يقتص بعضها من بعض، لكن الحشر يوم القيامة -ولو حملت هذه على الدنيا كما جاء عن أبيّ -رضي الله عنه- ثابت لهذه الوحوش أو الحيوانات، هنا ذكر الوحوش مع أن كل الحيوانات تحشر حتى غير الوحوش، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حتى تقتص الشاة الجَلحاء))[٤]، يعني التي ليس لها قرون ((من الشاة القرناء))، هذه ليست من الوحوش، ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض السلف كأُبيّ يقول: هذا في الدنيا، أي أنها تختلط؛ لأنه خص الوحوش، وإلا فيوم القيامة كل الحيوانات تحشر فلماذا خص الوحش؟

يمكن لقائل أن يقول: إنه إذا كان المراد يوم القيامة خصت الوحوش لأنها نافرة لا تأنس، ومع ذلك فإن الله قادر على جمعها وحشرها مع تفرقها وشدة نفورها، ولذلك الشيء بالشيء يذكر، الله -تبارك وتعالى- لما ذكر الحجيج وذكر التعجل والتأخر قال: {فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة البقرة:٢٠٣]، مناسبة ذكر الحشر هنا في نفور الحجيج كما لفت بعض أهل العلم قال: الناس يتفرقون من كل ناحية بعد الحج، لا يلتقون إلا يوم القيامة، كيف تجمع هؤلاء الحجيج الذين جاءوا من أصقاع الدنيا بعدما يتفرقون في اليوم الثاني عشر والثالث عشر؟، ما الذي يجمعهم؟ {وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة البقرة:٢٠٣]، يجمعهم يوم الحشر، هؤلاء الذين يذهبون بعضهم يموت، وهذا في المشرق، وهذا في المغرب، وهذا لا يحج غير هذه الحجة، لا يمكن أن يجتمعوا جميعاً في سنة واحدة، ويحج كل هؤلاء الذين حجوا، ولذلك هذا المشهد في تفرق الناس -الحجيج- في اليوم الثاني، وفي اليوم... هو يذكِّر بأشياء من الآخرة لا تخفى على ذي لُب.

---

٤ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٨٤٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكوير من الآية (٦) إلى الآية (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

يقول الله -تبارك وتعالى-: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير: ١] يعني: لُفت، فذهب ضوءها، وألقيت في النار، وجمع بعضها إلى بعض فانكسف ضوءها وصارت مظلمة.

{وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} [التكوير: ٢] حصل لها تغير فتساقطت وانتثرت، {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [التكوير: ٣] حركت من أماكنها، فسيرها الله -تبارك وتعالى- واندكت حتى صارت هباءً منثوراً، {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} [التكوير: ٤] هي النوق الحوامل التي بلغ حملها عشرة أشهر، هذه الأموال النفيسة ينشغل أصحابها عنها وينصرفون عن ملاحظتها لِمَا نزل بهم من الأهوال العظام، {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير: ٥] هذه الوحوش التي في البرية لا تَأنس تتحول إلى شيء آخر، تحشر إما في الدنيا بمعنى أنه يجتمع بعضها إلى بعض، فتختلط بالناس دون نفور، أو أن ذلك يكون في القيامة، ولا شك أنه واقع في القيامة، يحشرها الله كما يحشر سائر البهائم، فيقتص بعضها من بعض، والآية تحتمل هذا وهذا.

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] ألحق النظير بنظيره، فصار المؤمن مع المؤمن، والكافر مع الكافر، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني.

وقوله: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦]، روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: قال علي -رضي الله عنه- لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً، {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦]، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}. وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ}.

هذا الأثر مبناه على أن التسجير بمعنى الإيقاد، أنها تستعر وتضطرم بالنار، بصرف النظر عن موضع النار، فإن النار موجودة ومخلوقة الآن، وليست هي هذا البحر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رأى النار، ولما خلق الله النار أيضاً بعث إليها جبريل -عليه السلام- ونظر إليها، كما في الحديث المعروف، وكذلك أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى أقواماً يعذبون في النار، وأخبر عن حال عمرو بن لحي، والمرأة التي حبست في هرة، فالنار ليست هي هذا البحر إذا سُعر، وإنما هي مخلوقة وموجودة الآن، وهي أعظم من الأرض ومن البحر، ولا يمكن أن تقاس النار بحجم الأرض، بدليل أن الشمس والقمر يكوران ويلقيان في النار، وأهل الفلك يزعمون أن الشمس أكبر من الأرض بمئات الأضعاف، فكيف يقال: إن النار في البحر، وهو جزء من الأرض في أقصى حالاته قد لا يجاوز ثلاثة أرباع حجم مساحة الكرة الأرضية؟!.

فنأخذ من هذا الأثر معنى: سُعرت، أوقدت، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [التكوير: ٦]، السجر يقال في اللغة لثلاثة معانٍ، والسلف -رضي الله عنهم- ينبغي أن نقدر أقوالهم، وأن ندرك في الوقت نفسه أن هؤلاء أهل لغة، فلا نلغي أقوالهم، ونهدرها مسارعين في استبعادها مع أنهم أهل لغة، فننظر في عباراتهم.

فمادة السجر تقال لثلاثة معانٍ، الأول: الامتلاء والسيلان، والمعنى الثاني: الذي هو الإيقاد، سنلاحظ عبارات السلف والثالث: اليبس، أما المعنى الأول الذي هو الامتلاء والسيلان فهذا لا يزال موجوداً إلى اليوم يستعمله الناس، تقول: الماء يَسجر، يعني امتلأ وسال، صار يفيض ويسيل، ومن كلمات العامة التي يستعملونها في الدعاء إلى اليوم ولربما المرأة تدعو على صغيرها إذا لوث المكان ببوله – أعزكم الله – فتقول: "فَرَنْج يَسْجر"، دعوة معروفة عند العوام، يعنون: مرض الزهري، يسمونه السيلان، والعوام ما يعرفون هذا الكلام، لكون الأمراض الجنسية عرفت من الغرب، ولم تكن معروفة عند المسلمين، وانتقلت من الغرب إلى المسلمين.

الحسن يقول: {سُجِّرَتْ} يبست، وقتادة يقول: ذهب ماؤها، والفراء يقول: مُلئت وهذا القول قال به جماعة من السلف كالربيع والكلبي ومقاتل، وهو أيضاً مروي عن الحسن والضحاك، يعني: ملئت.

وبعضهم يقول: أرسل عذبها على مالحها، قال تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} [الرحمن:١٩-٢٠]، وقال: {وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا} [النمل:٦١]، هذا الحاجز وهذا البرزخ بعض العلماء يقول: إنه حاجز من اليابسة بين الأنهار والبحار فلا تختلط، هنا على هذا القول الكل يتحد فتسجّر بمعنى تفجر، ينفجر بعضها على بعض وتصير بحراً واحداً،

فبعضهم يقول: أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت وفاضت، وبعضهم كالضحاك يقول: {سُجِّرَتْ} يعني: فجرت بأن صارت بحراً واحداً، وهذا يشبه الذي قبله، لكنه يحتمل أن يكون المراد أن البحار المِلح أيضاً فجر بعضها على بعض فصارت بحراً واحداً، ومن الأقوال في قوله تعالى: {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} [الرحمن: ٢٠] بعضهم يقول: بين البحر والبحر حاجز، هذا له طبيعة وخصائص، وهذا له طبيعة وخصائص، وهذا شيء مشاهد وموجود، فالبحار تتفاوت في الكائنات التي تعيش فيها، كما أنها تتفاوت أيضاً في نسبة الملوحة، إلى غير ذلك، وبعض البحار تستطيع أن تسبح فيها وأنت لا تغمض عينيك، ولا تتأذى مما يصل إليها ولا ما يصل إلى الجوف تماماً، وهذا الشيء مشاهد، لكن هنا في المياه شديدة الملوحة كالخليج لا تكاد تطيق ذلك، الكائنات تختلف، والنباتات تختلف، فهنا يفتح بعضها على بعض، وتكون بحراً واحداً، هذا على قول بعض أهل العلم.

وبعضهم يقول: سعرت وأوقدت حتى صارت ناراً، كما جاء عن أبيّ بن كعب، وابن عباس، وسفيان الثوري، وابن زيد، وعطية، ووهب.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: ملئت حتى فاضت فانفجرت، فذكر معنى الامتلاء، والانفجار، والسيلان.

وقوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] أي: جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٢].

وروى ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] **قال: الضُّرَباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله))**[1]**، وذلك بأن الله**

---

[1] - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٤٠٧)، رقم: (١٩١٦٧).

-عز وجل- يقول: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ٧ - ١٠]، قال: هم الضرباء.

معنى الضرباء أي: النظراء، كل إنسان مع أضرابه، مع نظرائه، ومع من يشاكله في دينه وحاله وعمله، وبعضهم يقول: قرن بينهم في الجنة، وقرن بين أهل السوء في النار، والله -تبارك وتعالى- أطلق ذلك، وقال: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} [الصافات: ٢٢]، وقال عطاء: زوجت النفوس -نفوس أهل الإيمان- بالحور العين، وقرنت نفوس الكفار بالشياطين في النار، وقال عكرمة والشعبي: قرنت الأرواح بالأجسام، ولكن الذي عليه الجمهور أن المراد أن يحشر المرء مع ضربائه ونظرائه، اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس مع المجوس، وهكذا من يعبد شيئاً يلحق معه، وهكذا أهل الإيمان، وهذا مروي عن عمر -رضي الله عنه-، وقال به كثير من السلف، الحسن ومجاهد وقتادة والربيع، واختاره ابن جرير، ويدل على هذا {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} [الواقعة: ٧]، وبعضهم يقول: قرنت النفوس بأعمالها، لكن القول الذي عليه المعوّل هو أنه يحشر مع ضربائه.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ} [التكوير٨-٩] هكذا قراءة الجمهور: {سُئِلَت} والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تُسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذن؟!

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} أي: سَألت، وكذا قال أبو الضحى: سألت أي: طالبت بدمها، وعن السدي، وقتادة مثله.

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة، فروى الإمام أحمد عن عائشة عن جُدَامة بنت وهب -أخت عكاشة- قالت: حضرتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- في ناس وهو يقول: ((لقد هممت أن أنهى عن الغِيلَة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغيلُون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً))، ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ذلك الوأد الخفي، وهو الموءودة سئلت))[٢]. ورواه مسلم وابن ماجه وأبو داود والترمذي والنسائي.

الغيلة المقصود بها وطء المرأة وهي ترضع، وكانت العرب تسميه الغيلة، وكان العرب يظنون أن ذلك يوهن عظم الولد، ويكون ضعيفاً، وقال شاعرهم:

فوارس لم يغالوا في رضاعٍ *** فتنبوا في أكفِّهم السيوفُ

لم يغالوا في رضاع يعني: ما وطُئت أمه وهو يرضع، فتنبوا في أكفهم السيوف ينبوا عن الضريبة يزايلها لا يصيبها لضعفه، فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن فارس والروم يفعلونه فلا يضر الأولاد، فلم ينهَ عنه.

الوأد بعضهم يقول: أصله من الثقل، وأن هذه البنت حينما توضع في حفرة ويهال عليها التراب فيثقلها فتموت، أن هذا أصل هذا الإطلاق.

---

[٢] - أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب جواز الغيلة -وهي وطء المرضع- وكراهة العزل (١٠٦٦/٢)، رقم (١٤٤٢).

والسؤال يكون تبكيتاً لمن وأدها، لماذا فعلوا بكِ ذلك؟ ما الجرم الذي قارفتيه؟ فهذه عادة كانت عند بعض العرب، وإن شئتم ارجعوا إلى تاريخ العرب مثل كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، وهو من أوسع الكتب التي تذكر تفاصيل -أدق التفاصيل- في حياة العرب، فلو رجعتم إلى الوأد مثلاً يُسمي لكم القبائل التي تئد، ولم يكن كل العرب يفعلون ذلك، وقد مضى الكلام على هذا عند قوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [الأنعام:١٥١] .

وإذا كانت تُسأل تبكيتاً لمن وأدها فكيف بمن قام بوأدها؟!، وهنا نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: يعني طالبت بدمها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ}، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال: ((أعتق عن كل واحدة منهن رقبة))، قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل، قال: ((فانحر عن كل واحدة منهن بدنة))[٣].

وقوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: ١٠] قال الضحاك: أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: يا ابن آدم، تُملِي فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} هذه الصحف التي طويت، هي لا تطوى في نهاية العام كما يقول بعض الناس: طويت صحائف عام، فتحت صحائف عام جديد، بل هي تطوى بموت الإنسان، هذه الصحيفة تنشر يوم القيامة، {كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} [الإسراء:١٣]، مفتوحاً، {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]، فهذه الصحف هي عبارة عن إملاءات الإنسان التي كان يمليها في حياته من أقواله وأفعاله، فمثل هذا ينبغي أن يكون زاجراً وواعظاً للإنسان إذا أراد أن يطلق لسانه أن يتكلم بما لا يعنيه أو ما لا ينفعه.

وقوله تعالى: {وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ} [التكوير: ١١] قال مجاهد: اجتذبت، وقال السدي: كشفت.

أصل الكشط قلعٌ عن شدة والتزاق، كشَطَ الجلد، كشطتُ جلد البعير قلعته عن شدة والتزاق، شيء ليس بالسهولة يرفع ويقلع، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الشاة أو البعير؛ ولهذا قال الزجّاج: قُلعت كما يقلع السقف، والفراء يقول: نزعت فطويت، الواحدي يقول: الكشط رفعك شيئاً عن شيءٍ قد غطاه، مثلما قال الزجّاج: قُلعت كما يقلع السقف، وكما قالوا في قلع أو سلخ أو كشط الجلد، فكل ذلك بمعنىً متقارب.

عن مجاهد قال: اجتذبت، كأنه من لازمه، يعني: إذا قلعت قلعاً شديداً فيلزم من ذلك أنها جذبت، فهذا يشبه التفسير باللازم، ابن جرير يقول كما قال الفرّاء: نزعت فطويت، السدي يقول: كشفت.

---

[٣] - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الديات، باب ما جاء في الكفارة في الجنين وغير ذلك قال الله تعالى: "فتحرير رقبة مؤمنة" (١١٦/٨)، رقم (١٦٢٠٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٣٧/١٨)، رقم (٨٦٣)، والبزار (٣٥٥/١)، رقم (٢٣٨).

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} [التكوير:١٢] قال السدي: أحميت، وقوله تعالى: {وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} [التكوير: ١٣] قال الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، والربيع بن خُثَيم: أي: قربت إلى أهلها.

وقوله تعالى: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} [التكوير:١٤] هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} [آل عمران:٣٠]. وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣].

يعني أن الإنسان عند ذلك يتجلى له وهو يعرف حاله ومصيره معرفة إجمالية إذا مات وشاهد وعاين من الأمور الغائبة عنه، ثم بعد ذلك إذا صار البعث عرف من ذلك أعظم مما عرف قبله، فإذا قرأ صحيفته عرف ذلك بالتفصيل، {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}، فـ "ما" تدل على العموم يعني: يعلم كل ما أحضر، كل ما عمل، كل ما قدم؛ ولهذا يقولون: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩]، وسيأتي عن بعض السلف في الكلام على التدبر -إن شاء الله- أنهم ضجوا من الصغائر قبل الكبائر، فقدم ذكر الصغائر، كما قال الله تعالى: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: ٦]، هم نسوه إما لكثرة المعاصي، أو لقلة المبالاة، أو لتقادم الزمان، نسوا ذلك كله، ولكن الله أحصاه عليهم.

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ١٥ - ٢٩].

روى مسلم في صحيحه، والنسائي في تفسيره عند هذه الآية عن عمرو بن حُرَيث قال: صليت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- الصبح، فسمعته يقرأ: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}.

وروى ابن جرير عن خالد بن عرعرة سمعت عليًّا وسئل عن: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} فقال: هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل.

{فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} جاء الربط بالفاء بين هذين المقطعين، كأنه -والله أعلم- يقول: لو أنهم آمنوا بالقرآن الذي جاء القسم عليه لصدَّقوا بما هو من أعظم أخباره، وهو البعث، فهذه السورة تتحدث عن البعث والنشور واليوم الآخر، وأن ما ذكر في آخرها مما يتصل بالقرآن والقسم بأنه حق من عند الله -عز وجل- ووحي، أن ذلك يمكن أن يرجع إلى ما سبق، باعتبار أن هذا القرآن مخبر عن قضية البعث والنشور.

عن علي -رضي الله عنه- في قوله: {فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} أي: النجوم تخنس بالنهار، وتكنس بالليل، وهذا القول مروي عن كثير من السلف، كالحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، فيكون القسم بالخنس.

سميت بالخنس من خَنَس إذا تأخر؛ لأنها تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وبعضهم يحددها بخمسة، وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، وبعضهم يقول: كل الكواكب؛ لأن هذه صفتها، تخنس في النهار

إذا غابت، تخنس في مغيبها، والفراء يقول: هي الخمسة؛ لأنها تخنس في مجراها، وتكنس يعني: تستتر، كما تكنس الظباء في المغار، والأماكن التي تأوي إليها.

{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [التكوير: ١٦] لأنها تجري مع الشمس والقمر في الفلك، وبعضهم يقول: اختفاؤها تحت ضوئها، وبعضهم يقول: الخنوس: خفاؤها بالنهار، والكنوس هو غروبها، وجاء عن ابن مسعود ومجاهد والنخعي: أن المراد بها بقر الوحش، قالوا: لأنها تتصف بالخنس، وبالجوار، وبالكنس، فإذا رأت الإنسان انقبضت واختفت، فتدخل في كِناسها، الأماكن التي تأوي وتختفي فيها، فالكنس يقولون: مأخوذ من الكِناس الذي يختفي فيه الوحش، وبعضهم يقول: الظباء، كما جاء عن سعيد بن جبير، ومجاهد والضحاك، وهذا يشبه الذي قبله، لا ينافيه.

والراجح: أنها الكواكب، فهذا أليق بالسياق، فقد جاء في الآيات أشياء تناسب هذا، قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٧-١٨] فأقسم بهذه الكواكب التي تجري في الفلك وتغيب، وتختفي، كما أقسم بالليل إذا أقبل أو إذا أدبر كما سيأتي، وبالصبح في حال إقباله.

ويمكن أن يقال: إن الله -تبارك وتعالى- أقسم بالخنس، وهذا يصدق على كل ما يقال فيه ذلك، فيدخل فيه الكواكب، ويدخل فيه بقر الوحش، فيكون اللفظ حُمل على أعم معانيه، ولم يخص به معنىً دون معنى، هذه الطريقة هي التي يمشي عليها ابن جرير غالباً؛ ولهذا يقول: وأرجح الأقوال عنده أن يقال: إن الله أقسم بأشياء تخنس أحيانا –أي تغيب– وتجري أحياناً، وتكنس أخرى، وكنوسها أن تأوي في مكانسها، والمكانس عند العرب هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء، يقول: وغير منكر أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء، يعني عبر كما يعبر عن الأماكن التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء.

يقول: فإذا كان ذلك كذلك ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر، ولا البقر دون الظباء فالصواب أن يُعم بذلك كل ما كانت صفته الخنوس أحياناً، والجري أخرى، والكنوس بآنات – يعني أوقات– على ما وصف -جل ثناؤه- من صفتها.

وابن جرير –رحمه الله- عبارته واضحة، فيرى حمل ذلك على هذه المعاني جميعاً، وأحياناً ابن جرير يذكر المعنى في البداية، فعادة إذا ذكر آية يذكر بعدها سطراً أو سطرين أو ثلاثة، يسمى المعنى الإجمالي المعنى العام، وهذا الذي جمعه بشار عواد في المختصر لابن جرير، فجمع عبارات ابن جرير، وهذا يصلح أن يقرأ في المساجد، ويقرأ للعامة، وهذه طريقة مهمة، بحيث لا يضيع المعنى المقصود ويتفرق بالكلام على الجزئيات والتفصيلات، ولهذا الشاطبي -رحمه الله- وبعض العلماء ينكر الاشتغال باللطائف والدقائق، يقول: هذا يفوت المعنى الذي نزلت من أجله الآية.

والأولى التوسط في هذا الباب، فيذكر المعنى العام كما يفعل ابن جرير، ثم بعد ذلك تذكر المعاني، والتفاصيل والدقائق، واللطائف بما لا يفضي إلى القول على الله بلا علم، من التكلفات والمحامل البعيدة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [التكوير: ١٧] فيه قولان:

أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم، وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غَشي الناس، وكذا قال عطية العوفي.

وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس: {إِذَا عَسْعَسَ} إذا أدبر، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: {إِذَا عَسْعَسَ} أي: إذا ذهب فتولى.

وعندي أن المراد بقوله: {عَسْعَسَ} إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١، ٢]، وقال: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ١، ٢]، وقال {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً} [الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسعس" تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، لفظ "عسعس" مشترك يحمل معنيين متضادين، الأول: أقبل، والثاني: أدبر، وهذا سبب الاختلاف بين المفسرين من السلف فمن بعدهم، وهذا المعنى -أقبل وأدبر- كل واحد منها يشهد له القرآن، أقبل: يشهد له {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١]، بظلامه، {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ٢] يعني: أرخى سدوله، وأدبر: {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}

فأقسم الله بالليل في حال إقباله، وفي حال إدباره؛ لأنهما مظهران تتجلى بهما عظمة الله وقدرته، وهذا الذي جوزه ابن كثير، قال: "وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة "عسعس" تستعمل في الإقبال والإدبار، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما".

الذين قالوا: إن معنى عَسْعَسَ: أقبل، قالوا: أقسم الله بالصبح في حال ابتدائه في قوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٨]، فناسب أن يكون الإقسام بالليل في حال ابتدائه، فيكون الإقسام بالليل وبالنهار كليهما، وهذا هو الذي يشير إليه ابن كثير -رحمه الله.

وابن جرير –رحمه الله- يرجح أن المقصود به: أدبر، والقرينة عنده الترتيب الطبيعي، {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} بمعنى: أدبر، ويعقبه مباشرة تنفس الصباح.

ولو قيل: أقسم الله بالليل في حال إقباله، وبالليل في حال إدباره لم يكن ذلك بعيداً، ويكون اللفظ مشتركاً، وكل واحد من المعنيين جاء في القرآن القسم به صراحة؛ لأن ذلك كله مما تتجلى به عظمة الله -عز وجل.

المبرِّد يقول: كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، وهو: ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره، يعني: حمله على المعنيين.

بينما الفرَّاء ينقل إجماع المفسرين على أن معنى عسعس: أدبر، وهذا الإجماع غير صحيح كما ترون.

وقوله تعالى: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٨] قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل.

التنفس هو خروج النسيم من الجوف، تنفسَ الصباحُ؛ لأنه يقبل بروح ونسيم، فجعل بمثابة التنفس.

بعضهم كالواحدي يقول: امتد ضوءه حتى يصير نهاراً، وبعضهم يقول: انشق وانفلق، كل ذلك يرجع إلى معنىً واحد.

{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} يعني: ظهرت بوادره، وطلائعه، وأوائله، ومبادئه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة التكوير من الآية (١٩) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [سورة التكوير:٦] بمعنى أوقدت، مُلئت، فجرت، هذه عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم-، وبعضهم يقول: صارت يابسة، ومن أهل العلم من يجمع بين هذه المعاني فيقولون: فُجرت ففتحت على بعضها فملئت، وسالت وسعرت واضطرمت ناراً، ومن أدخل المعنى الأخير قال: حصل لها الجفاف بذلك، والله تعالى أعلم.

قال: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [سورة التكوير:٧]، إلحاق النظير بنظيره، فأهل الإيمان مع أهل الإيمان، وأهل الكفر مع أهل الكفر، على اختلاف طوائفهم ومللهم ونحلهم، وهذا يكون في محشرهم، كما أنه يكون أيضاً في عاقبة أمرهم في الجنة أو في النار كما جاء عن السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وتُزوج نفوس أهل الإيمان، فيكون المؤمن مع المؤمنين في الجنة، والكافر مع الكافرين في النار، وقول من قال: زوجت نفوس أهل الإيمان بالحور العين فهذا مما يرجع إليه كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، وهكذا قول من قال: زوجت نفوس الكافرين بالشياطين في النار فهذا يرجع إليه.

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ} [سورة التكوير:٧-٨]، البنت التي دفنت وهي حية تُسأل ما ذنبك ما جنايتك؟!

تُسأل تبكيتاً لمن وأدها بأي ذنب قتلت؟.

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [سورة التكوير:١٠]، صحائف الأعمال تطوى حينما يموت الإنسان، ثم تنشر، فيجد كل أحد كتاباً بين يديه يلقاه منشوراً {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء:١٤].

{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ} [سورة التكوير:١١] جذبت ونزعت بشدة وقوة، قلعت كما يكشط الجلد، نُزعت فطُويت، {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} [سورة التكوير:١٢]، تضرم النار، وهي متوقدة ولكنه يزاد في وقودها.

{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} [سورة التكوير:١٣] قربت لأهلها، {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} [سورة التكوير:١٤]، في هذه الحال يعلم كل أحد ما قدم وما هو عليه من العمل؛ لأنه شاهد صحيفة عمله وقرأها، فعرف حاله معرفة تامة على سبيل التفصيل بعد أن عرف ذلك معرفة مجملة حينما عاين ما عاين بعد الموت، وبعد البعث، وهذا هو الجواب لما قبله، يعني إذا حصلت هذه الأمور علمت نفس ما أحضرت.

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} [سورة التكوير:١٥] أقسم، و"لا" هذه لتأكيد القسم، الخنس الجواري الكنس، أقسَمَ بالنجوم أو الكواكب التي تخنِس، وذكر أحوالها الثلاث: الخنس، والجواري، والكنس، فتغيب تحت ضوء الشمس وتختفي، هذا هو المشهور الذي عليه الجمهور، وبعضهم يقول: هي بقر الوحش أو الظباء، وبعضهم جعل المعنى يشمل ذلك جميعا، كل ما يتصل بهذا، مع أن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- اختار أنها النجوم، ورد

على من قال: إنها الظباء، أو بقر الوحش من أوجه كثيرة وضعّفه، من هذه الأوجه: أنه لم تجرِ العادة في القرآن بالقسم بالظباء، ولا ببقر الوحش، كذلك أيضاً أن النجوم آية أعظم وأبلغ، وكذلك النجوم يشاهدها الجميع أما الظباء وبقر الوحش فلا تُعرف هذه التفاصيل من أحوالها لدى كل الناس، ولا يشاهدونها، وذَكَرَ بالخنس معنى الخنس في الظباء وبقر الوحش أن آنافها تكون إلى الأعلى، يعني ليست قائمة، ترون الأبقار كيف تكون آنافها إلى الأعلى، يعني ليست قائمة كأنف الإنسان، فيقول: هكذا الظباء أيضاً، ويقول: هذا هو المراد، لهذا الخنساء يقال لها: الخنساء؛ لارتفاع في أنفها، فيقول: إن هذه الصفة لا يعرفها أكثر الناس عن بقر الوحش والظباء فكيف يقسم بشيء خفيٍّ؟ ما جَعل ذلك باعتبار أنها تختفي، يقول: لأنها لا تختفي دائماً هي في الفلوات.

ويقول: "الخُنّس" ليس ذلك جمعاً لما قيل من أنها الظباء، وإنما الظباء يقال: الخُنْس؛ باعتبار هذه الصفة فيها، والمؤنث يقال: خنساء، الواحدة، والجمع يقال: خُنْس، يقال: أخنس وخنساء، ويجمع ذلك جميعاً على الخُنْس، قال: هنا قال: "الخُنّس" إذاً هي ليست بمعنى أنها تخنِس، أي ليس معنى ذلك أن الظباء أو بقر الوحش كونها خنساء بهذه الصفة فيها، وإلا لقال: الخُنْس، وإنما قال: "الخُنّس" ذكر هذه وذكر غيرها يرجح بذلك أن المراد النجوم أو الكواكب، وكما سبق أن ابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على كل ما يتصف بهذا.

{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} [سورة التكوير:١٦] هاتان صفتان أخريان لها: جوارٍ وكنس، تكنِس والكِناس هو غروبها، أو المحال التي تأوي إليها بقر الوحش أو نحو ذلك، فذلك كِناسها، ابن القيم يقول: ليست بقر الوحش والظباء هي التي لها كِناس حتى يقال لها: الجوار الكنس، يقول: حتى الطيور وبقية الحيوانات فلماذا خصها؟.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧]، يأتي بمعنى أقبل ويأتي بمعنى أدبر، وحمل المشترك على معنيين -لاسميا إذا دل الدليل على أن كل واحد صحيح- ثابت لا إشكال فيه، ومن هنا قال بعض أهل العلم: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** أقسم به في حال إقباله وفي حال إدباره، ومن أهل العلم من قال: المراد أقبل قال: لأنه قابله بتنفس الصباح، فأقسم بكل واحد منهما في حال إقباله، والذين قالوا: أدبر قالوا: هذا المناسب لما بعده، فإذا أدبر تنفس الصباح، وابن القيم ينتصر لهذا بقوة، ويقول: هذا هو القول؛ للبعد ما بين ظلام الليل في حال إقباله وطلوع الصبح فناسب أن يكون ذلك بعده مباشرة كما قال: **{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ}** [سورة المدثر:٣٣-٣٤].

وتنفُّسُ الصباح معروف بضيائه ونسيمه، **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}** [سورة التكوير:١٩] هذا المقسم عليه.

وسنقرأ بعض العبارات المهمة في نظري من كلام ابن القيم لما فيها من فائدة، أو تفصيل، أو طريقة قوية في الترجيح، أو لفتة جميلة، ولا نقرأ كل كلامه ولكن مختارات من كلامه، فابن القيم يرى أن **{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}** [سورة التكوير:٥] أنه في يوم القيامة، ذكره من جملة الأدلة على أن الوحوش والحيوانات تحشر يوم القيامة، وليس كما جاء عن أُبي -رضي الله عنه- في الرواية التي سبقت أنها تختلط في الدنيا وتذهب منها الوحشة أو الاستيحاش، تخالط الناس أو يخالط بعضها بعضاً عند أهوال القيامة في آخر الزمان، هذا كلام ابن القيم لكن ممكن أن نترك هذا، هذا حاصله الذي ذكرته آنفاً.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "ولما كان للنجوم حال ظهور وحال اختفاء وحال جريان وحال غروب أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها، ونبه بخُنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخُنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفياً: إنه قد خنس، فذكر سبحانه جريانها، وغروبها صريحاً"[1].

هنا يُلفت النظر إلى مسألة الطلوع أنه على طريق التنبيه بالخنوس.

وقال -رحمه الله-: "وخنوسها، وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها، فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته، وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر؛ لوجوه:

أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

الثاني: اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

الثالث: أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقاً، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

الرابع: أن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء، قال الواحدي: هو من الخَنَس في الأنف وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خُنْس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس، ومنه سميت الخنساء؛ لخَنَس أنفها"[2].

هذه الوجوه ذكرت لكم حاصلها فلتراجع في موضعها.

وقال -رحمه الله-: "واختلف في عسعسة الليل هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر هذا قول علي وابن عباس وأصحابه، قال الحسن: أقبل بظلامه وهو إحدى الروايتين عن مجاهد

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله -سبحانه وتعالى- بإقبال الليل وإقبال النهار فقوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} مقابل لليل إذا عسعس، قالوا: ولهذا أقسم الله بـــ {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [سورة الليل:١-٢] وبالضحى، قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلى النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى {كَلاَّ وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} [سورة المدثر:٣٢-٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح وذلك نظير عسعسة الليل وتنفس الصبح، قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار فإنه عقيبه من غير فصل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمناً طويلاً، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ، فذكر سبحانه حالة ضعف هذا وإدباره وحالة قوة هذا وتنفسه، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وهذا هو القول، والله أعلم"[3].

---

١ - التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص: ١١٦).

٢ - المصدر السابق.

٣ - المصدر السابق (ص: ١١٨-١١٩).

وهذا الكلام الذي يذكره ابن القيم -رحمه الله- يقول: قالوا، وقالوا، في كثير من الأحيان -والله أعلم- فيما أطالعه من كتب التفسير، ومراجعة كلام المفسرين وكذا لا أجد لذلك أثراً، يعني كلام ابن القيم لا تجده في كتب التفسير، لكن هو -رحمه الله- يحتج لهؤلاء بما يمكن أن يحتجوا به، فيذكر ذلك على سبيل المناظرة، فيستقصي لهم الأدلة ويبدع في هذا -رحمه الله- غاية الإبداع، وإلا فمثل هذا الكلام في مواضع كثيرة كما اعتدنا في دروس التفسير لا تجد له نظيراً إطلاقاً في كتب التفسير، ولا في طريقة الترجيح، ولا بالمقارنة بين الأقوال، ولا بطريقة الجمع بينها في بعض المناقشات في عبارة عذبة سلسة واضحة، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧] كما سبق يمكن أن تحمل على المعنيين، باعتبار أن كل واحد منهما شهد له القرآن.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} [سورة التكوير:١٩]، **يعني أن هذا القرآن لَتبليغُ رسول كريم، أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، قاله ابن عباس، والشعبي، وميمون بن مهران، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم.**

هذا هو جواب القسم، أقسم بالخنس الجواري الكنس، وأقسم أيضاً بالليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس، قال: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}، وهذا الرسول الكريم المقصود به جبريل -عليه الصلاة والسلام- بالإجماع؛ لأن الله -عز وجل- وصفه هنا قال: {ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:٢٠-٢١] هذا كله في جبريل -صلى الله عليه وسلم- كما قال الله -عز وجل-: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [سورة النجم:٥].

أما الذي في سورة الحاقة {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [سورة الحاقة:٤٠-٤٢]، فهذا الرسول هو الرسول البشري محمد -صلى الله عليه وسلم- بناء على الصفة، {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} فأضافه إلى الرسول الكريم في الموضعين، والكريم هو الشريف من جنسه كما سبق، فهذه الإضافة باعتبار التبليغ، فهي وظيفة الرسول الملائكي، وهي وظيفة الرسول البشري -عليهم الصلاة والسلام-، يبلغون عن الله.

وصحة الإضافة بهذا الاعتبار، وإلا فهو كلام الله -عز وجل- قول الله-، فالقرآن هو كلام الله بلفظه ومعناه، {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [سورة التوبة:٦] فأضافه إلى الرسول الملائكي تارة، وإلى الرسول البشري تارة باعتبار أنهما مبلغان عن الله.

{ذِي قُوَّةٍ} **كقوله تعالى:** {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} **أي شديد الخلْق، شديد البطش والفعل،** {عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} **أي له مكانة عند الله -عز وجل- ومنزلة رفيعة،** {مُطَاعٍ ثَمَّ} **أي له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، قال قتادة:** {مُطَاعٍ ثَمَّ} **أي: في السماوات يعني هو ليس من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة.**

مطاع ثم: أي مطاع بين الملائكة، مطاع في الملأ الأعلى -صلى الله عليه وسلم-، وقوله هنا: **هو ليس من أفناد الملائكة،** الأفناد جمع الفَنَد، هذه المادة تدل على القوة والشدة، الشديد القوي، ولكن السياق الذي ذكرها فيه ابن كثير -رحمه الله- كأنه يقصد بذلك: **ليس من أفناد الملائكة،** يعني ليس من آحاد الملائكة، ليس من

أفراد الملائكة، إنما هو أعظم الملائكة وأشرف الملائكة، وليس من أفراد الملائكة، هكذا أراد، والله تعالى أعلم.

وفي بعض الطبعات: **من أفناء** يعني لا يُعلم من هو، يعني هو ليس مجهولاً، وليس ممن لا يعرف؛ لأن أفناد هنا تحتاج إلى تخريج كما ذكرت أن السياق يدل على أنه استعملها يريد ليس من أفراد الملائكة، وإلا فأصل المادة يدل على الشدة والقوة، فكنت أعجب من استعمال ابن كثير -رحمه الله- لهذه اللفظة هنا **ليس من أفناد الملائكة** ليس من أشداء الملائكة وأقوياء الملائكة، هكذا لو أردنا أن نفسرها بمعناها، لكن وجدت لذلك مساغاً أنه لربما استعملت هذه الكلمة بهذا السياق ليس من آحاد الناس، ليس من أفراد الناس أو نحو ذلك، لكن ليس هو معناها الأصلي، فكونها أفناء هذا هو المناسب، يعني هو من رؤساء الملائكة، ليس من أفناء، بالهمزة وليس بالدال.

وقوله: {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [سورة التكوير:٢١] "ثَمّ" هذه ظرف مكان للبعيد، {مُطَاعٍ ثَمَّ} مطاع في السماوات، أمين فيها أي على ما ائتمنه الله -عز وجل- عليه من الوحي، وما جعله أميناً عليه {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} ليست هذه "ثُم"، وإنما "ثَم" بمعنى هناك، وابن القيم -رحمه الله- تكلم على هذا الموضع بكلام جيد فيه إشارات جميلة وهذه الصفات التي ذكرها الله، وما تدل عليه، فقال -رحمه الله تعالى-: "ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة قولُ الله -سبحانه- بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد كريماً، ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم، والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- كريم جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين، وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}، وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئاً، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موالٍ لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواددٌ له وناصر، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [سورة التحريم:٤]، ومن كان هذا القوي وليه ومن أنصاره وأعوانه، ومعلمه فهو المهدي المنصور، والله هاديه وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤدٍّ له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب له القوي

عليه الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً، معظماً، ذا مكانة عنده، مطاعاً في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات، وهذا يدل على عظمة شأن المرسِل والرسول والرسالة والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي، المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مُهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية"[٤].

هذا الكلام الذي ترونه كل صفة استخرج منها معاني، وربط ذلك بحال النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: إذا كان الذي يأتيه بالوحي بهذه المثابة فينبغي أن يكون هذا الرسول الذي اختير لذلك أن يكون أيضاً بهذه الأمانة والشرف وما إلى ذلك، وهذا الجزء هو الذي يسمونه بالتفسير الإشاري -هذا الجزء الأخير-، والتفسير الإشاري غالبه وعامته لا يصح -كلام الصوفية وما أشبه ذلك-؛ لأنه لا يستند إلى قاعدة، أو طريقة من طُرق الاستنباط، ولكن يوجد منه أشياء من قبيل الشيء بالشيء يذكر، النظير بالنظير، الاعتبار، المقايسة، يذكره ابن كثير، وابن القيم، وابن تيمية، والسعدي وأمثال هؤلاء، دعنا من الصوفية، هذه أمثلة قليلة جداً جميلة مفيدة، وذكرت لكم منها قول شيخ الإسلام وابن القيم في وصف القرآن بأنه {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} [سورة عبس:١٣-١٤] قالوا: ينبغي إذا كان الذي في السماء بهذه المثابة أن يكون الذي في الأرض بهذه المثابة، لا يمسه إلا المطهرون.

بل قال شيخ الإسلام وابن القيم: إذا كان هذا القرآن بهذه المثابة أنه {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [سورة عبس:١٥-١٦]، و{لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [سورة الواقعة:٧٩]: فكذلك معانيه لا تدخل إلا في القلوب الطيبة، لا تدخل إلا في القلوب الزاكية، هذا كله من قبيل التفسير الإشاري وليس من قبيل التفسير بإشارة النص.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وهذا يدل على عظمة شأن المرسِل والرسول والرسالة والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي، المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مُهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية"[٥].

يعني هذا يعتبر من دلالة الاقتضاء، يقتضي كذا، وهي دلالة معروفة من أنواع المنطوق، لا إشكال فيها.

وقوله تعالى: {أَمِينٍ} صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب -عز وجل- يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً -صلى الله عليه وسلم- بقوله تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ}.

قال الشعبي، وميمون بن مهران، وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم.

هنا ذِكرُ الصاحب يدل على معنى وهو أنهم يعرفونه تمام المعرفة، وهو أبعد ما يكون عن الجنون، وهذا الذي جاء به لا يمكن أن يصدر عن مجنون.

---

٤ - المصدر السابق (ص: ١٢٠-١٢٢).

٥ - المصدر السابق (ص: ١٢٢).

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [سورة التكوير:٢٣]، يعني ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله -عز وجل- على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، {بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} أي البين وهي الرؤيا الأولى التي كانت في البطحاء والمذكورة في قوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [سورة النجم:٥-١٠] كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريرُه والدليلُ أن المراد بذلك جبريل -عليه السلام.

والظاهر -والله أعلم- أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤيا وهي الأولى.

وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [سورة النجم:١٣-١٦] فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} يعني مطلع الشمس من جهة المشرق هذا هو الأفق المبين، وإلا فإن الأفق يقال على المشرق، كما يقال أيضاً على المغرب، كل ذلك يقال له: الأفق، لكن لما قال: "المبين" دل على أنه من جهة المشرق، فهذا هو المبين الذي تُرى به الأشياء، وبعضهم يقول: بالأفق المبين يعني أقطار السماء ونواحيها كل ذلك يصدق عليه، وبنحوه قال ابن جرير -رحمه الله-، يعني لم يقيد ذلك بناحية المشرق.

وقوله تعالى: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير:٢٤] أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين أي بمتهم، ومنهم من قرأ ذلك بالضاد أي: ببخيل بل يبذله لكل أحد، قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر، والظنين المتهم، والضنين البخيل، وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد فما ضنّ به على الناس، بل نشره، وبلغه، وبذله لكل من أراده، وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد، واختار ابن جرير قراءة الضاد، قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح كما تقدم.

قوله: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} بالضاد هذه قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى بالظاء -أخت الطاء- فهذه قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، ومعنى "بضنين": ببخيل، ضن بماله، ضن بما في يده، ضن بعلمه، يعني بخل، وظنين من الظن يعني أنه متهم، ليس على علم وبينة ويقين من أمره، فالسلف فسروا هذا، وهذا كله حق، والقاعدة أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين، فهذه دلت على معنى، وهذه دلت على معنى، وهذا من إعجاز القرآن حيث يصرّفه الله -عز وجل- بهذه الألفاظ التي يركب الناس كلامهم من حروفها، ومع ذلك يتحداهم أن يأتوا بمثله على أي وجه كان، وكذلك أيضاً تكثُر المعاني وتتوارد، ويكون ذلك زيادة في الأحكام بتنوع هذه القراءات.

وهنا في قول قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- فما ضن به على الناس، بمعنى أن الإنسان إذا كان عنده شيء نادر، أو شيء لا وجود له عند الآخرين أنه يمسكه، يكون عزيزاً على نفسه، لا يبذله للناس، لا يسهل ذلك على نفسه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- الله أنزل عليه هذا الوحي الذي فيه السعادة في الدنيا والآخرة، ومع ذلك كان في غاية البذل والجود، فبلغ البلاغ المبين -عليه الصلاة

والسلام-، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: "ثم نزه رسوليه كليهما -أحدهما: بطريق النطق، والثاني: بطريق اللزوم- عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة، والبخل، والتبديل، والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}، فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أداؤها من غير كتمان، وأداؤها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان، والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما -وهي قراءة الضاد- تنزيهه عن البخل، فإن الضنين هو البخيل، يقال: ضنِنتُ به أضنّ بوزن بخِلتُ به أبخل"[٦].

من باب ضنِنتُ فهو أضَنّ الوصف بالضاد -أخت الصاد-، يقال: فلان أضن، وهو ضنين، يعني بخيل، أما بالظاء -أخت الطاء- فتقول: ظنَنْت كذا أظُنه، الذي هو الشك أو الريبة، أو عدم التيقن من الشيء، ظننت أظن فهو ظان يظن.

وقال -رحمه الله-: "يقال ضنِنت به أضن بوزن بخلت به أبخل ومعناه، ومنه قول جميل بن معمر:

أجودُ بمضمونِ التِّلادِ وإنني *** بسرِّكِ عمن سألني لضنينُ

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ليس بخيلاً بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم، وأجمع المفسرون على أن الغيب هاهنا القرآن والوحي، وقال الفراء: يقول تعالى يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم"[٧].

لاحظ وهو منفوس فيه، وهو على الغيب يعني على الوحى، يعني هذا الشيء خُص به، نفيس جداً، غاية النفاسة، مع ذلك ينقله ويجود به.

وقال أيضاً -رحمه الله-: "وهذا معنى حسن جداً فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولاسيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه، ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حُلواناً.

وفي معنى آخر وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن يَنتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقاً به مقيماً عليه، مبدياً له في كل مجمع، ومعيداً منادياً به على صدقه، مُجلباً به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ بظنين بالظاء فمعناه المتهم، يقال: ظننتُ زيداً بمعنى اتهمته وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أمَا وكتابُ اللهِ لا عن شناءةٍ *** هجرتُ ولكنّ المحبَّ ظنينُ

---

٦ - المصدر السابق (ص: ١٢٤).

٧ - المصدر السابق (ص: ١٢٤-١٢٥).

المعنى وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص، وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال: {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ}، ثم قال: {وَمَا هُوَ} أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل، واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين.

أحدهما: أن الكفار لم يُبخِّلوه وإنما اتهموه"[٨].

ضن يضن: يبخل، لكن العبارة التي نقلها هنا ابن القيم -رحمه الله- باعتبار أن الظنين ليس من الظن الذي هو دون اليقين، وإنما هو للتهمة، يعني معنى آخر فظنه: اتهمه، الظنين: المتهم، يعني غير الظن الذي خلاف اليقين.

وقوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [سورة التكوير:٢٥] أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٠-٢١٢].

وقوله تعالى: {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} [سورة التكوير:٢٦] أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقاً من عند الله -عز وجل-، كما قال الصديق -رضي الله عنه- لوفد بني حنيفة حينما قدموا مسلمين وأمرَهم فتلَوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: ويحكم أين تذهب عقولكم؟!، والله إن هذا الكلام لم يخرج من "إلٍّ" أي من إله.

وقال قتادة: فأين تذهبون أي عن كتاب الله وعن طاعته.

هكذا، فأين تذهبون يعني بعد هذا البيان أين تذهبون؟ أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريق التي بينت لكم؟ كما يقول الزجاج: أي مسلك تسلكون بعد هذا البيان؟.

وقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٧] أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون، {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [سورة التكوير:٢٩]، أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

يعني هذا القرآن ذكر للعالمين، ذكر لجميع الناس، فهو مذكر لهم ثم قال: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} فهذا بدل بعض من كل، أي: ذكر للعالمين قال: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} يعني هم بعض العالمين وهم الذين آمنوا بهذا القرآن وانتفعوا به، كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:٢]؛ لأنهم الذين ينتفعون به، فصح تخصيصهم بذلك باعتبار الانتفاع.

والأول: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}: يعني كما يقال: بالقوة مشتمل على الذكر، متضمن له، {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ}: هذا بالفعل، هو ذِكرٌ بالفعل لهم؛ لأنهم عملوا بمقتضاه وانتفعوا بهداه، قال ابن القيم -رحمه الله-: "ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر مبارك، وفي موضع آخر

---

٨ - المصدر السابق (ص: ١٢٥-١٢٦).

وصفه بأنه ذو الذكر، وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكّر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب -تعالى- وأسمائه وصفاته، وأفعاله وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه وبالشر ليجتنبوه.

ويذكرهم بنفوسهم وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، وبأي الأبواب والطرق يأتي إليهم، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسَه وشدة بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه، ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه كما قال: {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة:٦٣]، و[سورة الأعراف:١٧١].

وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له مَن أُنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين، وحيث خص به المتقين؛ فلأنهم الذين انتفعوا بذكره، وأما وصفه بأنه ذو الذكر؛ فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة"[٩].

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة التكوير:٢٩] أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله -تعالى- رب العالمين.

روى سفيان الثوري عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} آخر تفسير سورة التكوير، ولله الحمد والمنة.

هذه الآية فيها إثبات المشيئة للعبد، والمشيئة للرب -تبارك وتعالى-، وأن مشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الرب -جل جلاله- {وَمَا تَشَاءُونَ} أثبت لهم المشيئة، {إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فلا يقع في ملكه إلا ما أراد وشاء خلافاً لمن نفى مشيئة العبد، وأثبت مشيئة الرب أو عكَسَ ذلك، العلماء من أهل السنة وغير أهل السنة يتكلمون على أنواع المشيئة في هذا الموضع بالكلام المعروف لكن ابن القيم له تعليق على هذه.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وقوله تعالى: {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} بدل من العالمين، وهو بدل بعض من كل، وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكراً للعالم كلهم غير جهة كونه ذكراً لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنصر، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه، ولابد من هذا فتأمله.

وقوله: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ} رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

---

٩ - المصدر السابق (ص: ١٢٨-١٢٩).

قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وُجد.

ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله تعالى بفعل العبد بل هو يفعله بدون مشيئة الله، فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين"[١٠].

وقال -رحمه الله-: "وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختصة بها، فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي، وعبودية الثانية: الاستعانة بالله والتوكل عليه، واللجوء إليه، واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم أن العبد لا يمكن أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: {رَبُّ الْعَالَمِينَ} ينتظم ذلك كله ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها، وبالله التوفيق"[١١].

العلماء كابن جرير وغيره كثير يرجحون بين القراءات ويختارون، باعتبار أن هذه القراءة مثلاً تتضمن معنى أكبر أو أوسع أو أبلغ أو يناسب السياق، أو نحو ذلك، يعني مما يجري فيه اختيار القراءة، هذا كثير في كتب التفسير، وفي غيرها أيضاً، ولا بأس به، لا إشكال بقيد وهو أن لا يكون هذا الترجيح بين القراءات بطريقة يفهم منها الحط أو الوضع أو الإزراء أو التنقص من القراءة الأخرى، وأحياناً توجد في بعض العبارات بعض المفسرين لما يرجح قراءة على قراءة أحياناً تشعر بأن هذا الترجيح يفضي إلى شيء من تنقص القراءة الأخرى، وهذا لا يجوز؛ لأنها متواترة وهذا كلام الله -عز جل-، لكن لا بأس أن يختار كأن يقول: والله أنا أختار قراءة {ملِك يوم الدين} باعتبار أن الملِك يكون ملِكاً ومالكاً، فهو أبلغ من المالك، أرجّح هذه القراءة، لا إشكال.

لكن تبقى القراءة الثانية قراءة متواترة، والأحسن عند التفسير أن يذكر معنى هذا وهذا، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، يكون هذا من جملة التفسير على أوجه القراءات، فلو أنه اختار إحدى القراءات وقال: أنا أرجح هذه وهي تدل على المعنى الفلاني لا إشكال، لكن بحيث لا يكون ذلك يفهم منه انتقاص القراءة الأخرى.

فما تجدونه في كتب التفسير أحياناً من ترجيح لإحدى القراءات بما يشعر بالحط من الأخرى هذا لا يصح، أما مجرد الترجيح فلا إشكال لاعتبارات معينة في المعنى، هكذا يُفهم مما ذَكر مما قرأت هنا أنه يأتي لهذا المعنى وهذا المعنى، اقرأه كاملاً يعني كأنها مادة أخرى، يمكن أن يرجع في هذا إلى معجم مقاييس اللغة لابن فارس، فهو الذي يبين أصل المادة هل ترجع إلى أصل واحد أو إلى أصلين.

معنى {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} يعني بعد هذا البيان والإيضاح أي طريق تسلكون؟ ماذا عسى أن تقولوا؟ كما تقول لمن توضح له، وتبين بياناً يجلّي الحق، ولا يدع فيه لبساً أو غموضاً، تقول له: فأين تذهب؟ فأين تذهبون بعد هذا

---

١٠ - المصدر السابق (ص: ١٢٩-١٣٠).

١١ - المصدر السابق (ص:١٣٠).

البيان؟، ماذا عسى أن تقولوا؟، ماذا عسى أن تجيبوا؟، تورد الأدلة التي لا مجال معها للمكابرة، وتقول: فأين تذهب بعد ذلك؟، أين تذهبون بعد هذه الأدلة؟.